آغا محمد سليم اختر*

دور القرآن الكريم فى صيانة اللغة العربية و نشرها

الحمد لله رب العلمين ، والصلواة والسلام على خاتم النبيين و أشرف المرسلين. سيد الأولين والآخرين ، محمد بن عبدالله النبى الأمى العربى ، و على آله الطاهرين الطيبين و أصحابه أجمعين.

أما بعد : فانه قد تقرر عند أهل العلم بالتواتر التاريخى أن الله سبحانه و تعالىٰ راعى مكة و أهلها مراعاة خاصة منذ القدم. منذ كان ابراهيم و اسماعيل عليهما السلام رفعا القواعد من البيت بواد غير ذى زرع ، و كان ابراهيم عليه السلام دعا ربه : ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم و ارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون.[1]

و منذ كان إبراهيم عليه السلام أذن فى الناس بالحج ، امتثالاً لأمر ربه تعالىٰ حيث قال : و أذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً و على كل ضامر يأتين من كل فج عميق[2] منذ ذلك الحين ، كان هذا البيت العتيق مهوى قلوب الناس ينسلون إليه من كل حدب و صوب ، فهو بيت ربهم و موضع حجهم.

و كان الله سبحانه و تعالىٰ قد استجاب دعوة إبراهيم عليه السلام التى دعا فيها : ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب و الحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم[3] وهيأ لمكة و أهلها ظروفاً عديدة و أسباباً سياسية و دينية و اقتصادية ، جعلتها مركزاً هاماً للتجارة فى الجاهلية.

كان يوجد فى الجزيرة العربية طريقان عظيمان للتجارة بين الشام و المحيط الهندى ، إحداهما : تسير شمالاً من (حضرموت) إلى (البحرين) على الخليج العربى ، و من ثم إلى الشام ، و الثانية : تبدأ من (حضر موت) ايضاً و تسير محاذية للبحر الاحمر متجنبة صحراء نجد ، و مبتعدة عن هضبات الشاطئ و وعورتها ، و على هذه

---

*شعبة اللغة العربية الكلية الحكومية بفيصل آباد

١- سورة ابراهيم : ٣٧

٢- سورة الحج : ٢٧

٣- سوره البقرة : ١٢٩

الطريق الاخيرة تقع مكة[1] :

«ثم ما لبث أعلها أن يقتبسوا من رجال القوافل سر السفر و فائدتها ، فسافروا أنفسهم على هيئة القوافل إلى بلاد اليمن و الشام».[2]

وكان من تدبير الله العزيز الحكيم أن ينشأ بهذه البلدة المقدسة عباقرة، و ينبغ فيها نوابغ ، لانه كان قدر لها أن تكون أول مركز للدعوة الاسلامية ، تلك الدعوة التى ستأخذ على يد الظالم و تقوم على جنب المظلوم و تعين الفقير و الضعيف. و ستصل هذه الدعرة إلى أرجاء العالم و تنجذب الاقوام و الأمم فتأتيها تلبى و يدخل الناس فى دين الله أفواجاً. أذكر من هؤلاء النوابغ و العباقرة قصى بن كلاب، ثم هاشماً الذى هو أول من بدأ الرحلتين : رحلة الشتاء إلى الشام و رحلة الصيف إلى الحبشة.[3] و أخذ من القبائل العربية (إيلافاً)[4] مواثيق أن لاتتعرض للقوافل التجارية على جانب ، و من ملوك الشام و اليمن و الحبشة على جانب آخر كتباً ليتمكنوا على الصدور و الورود فى تلك البلاد للتجارة بالحرية الكاملة.

١- انظر : «تاريخ الادب الجاهلى» للدكتور على الجندى : ٨٦/١

٢- «المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام» للدكتور جواد على : ٦/٤

٣- كذا ذكره اليعقوبى (تاريخ اليعقوبى ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٢) و المعروف عند المفسرين أن الرحلة فى الشتاء كانت إلى اليمن لأنها حارة ، و الرحلة فى الصيف إلى الشام ، لانها بلاد باردة (أنظر الجامع لاحكام القرآن للقرطبى ج ٢ ، ص ٢٠٦)

و قد روى المقدسى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله : (رحلة الشتاء و الصيف) ، قال : كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف (أحسن التقاسير فى معرفة الاقاليم ، ص ٩٥). ذكر القرطبى هذه الرواية و علق عليها بقوله : «و هذه من أجل النعم أن يكون لقوم ناحية حر تدفع عنهم برد الشتاء ، و ناحية برد تدفع عنهم حر الصيف ، فذكرهم الله تعالى هذه النعمة» (الجامع لاحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ٢٠٦)

٤- فسره الجاحظ بأنه جعل قرضه هاشم على القبائل لحماية مكة من الصعاليک و ذؤبان العرب (انظر : رسائل الجاحظ ، ص ٧٠ إخراج الاستاذ حسن السندوبى). و تعرض الثعالبى لهذا الموضوع (الايلاف) يقول فيه : «وكان هاشم يأخذ الايلاف من رؤساء القبائل و سادات العشائر لخصلتين : احداهما : ان ذؤبان العرب و صعاليک الاعراب و أصحاب الغارات و طلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم. (بقية الحاشية فى الصفحة الآتية)

و فى مكة البيت الحرام الذى يقدسه معظم قبائل العرب ، وكانت قريش سدانة هذا البيت ، يقومون بالعناية به ، و المحافظة عليه ، فأكسبهم ذلك احتراماً عظيماً عند سائر العرب. و كان الحج وسيلة الاجتماع و الالتقاء و التعارف ، كما كانت تقام فى مواسم الحج أسواق تجارية و أدبية مثل سوق (عكاظ) و سوق (مجنة) و سوق (ذى المجاز) ، و فى هذه الاسواق كان العرب من جميع أنحاء الجزيرة العربية يقدمون بسلعهم للتجارة ، وزادهم الادبى للمشاركة فى الاجتماعات التجارية ، و اللقاءات الادبية. وكانت سوق (عكاظ) أعظم هذه الاسواق ، و أحفلها و أكثرها اجتماعاً. ويبدو أنه لم يكن عربياً ذا مكانة إلا كان يحضرها. و كما كانت تنزلها قبائل «قريش و هوازن ، و غطفان ، و خزاعة ، و الاحابيش ، و عضل ، و المصطلق ، و طوائف من أفناء العرب»[1] كان الناس «يؤمونها من العراق و البحرين و اليمامة و عمان و الشعر و اليمن و سائر أطراف الجزيرة»[2]. «. . . وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده إلا سوق عكاظ ، فانهم كانوا يتوافون بها من كل جهة . . .»[3] حتى الذين لم يحضروها تتبعوا ما حدث بها. «و العرب اجتمعوا فى هذه المواسم فاذا رجعوا إلى قومهم ذكروا لقومهم ما رأوا و ما سمعوا.»[4] فكل ما يحدث فى هذه السوق ، وكل ما قيل كان يشيع فى أرجاء الجزيرة العربية. حسب هذه السوق شرفاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحضرها. يدعو الناس إلى ربهم ، ففى حديث جابر بن عبدالله رضى الله تعالى عنه : «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الناس

(من الصفحة الماضية)

و الخصلة الاخرى : ان أناسا من العرب كانوا لايرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً ، كبنى طىء ، وخثعم ، و قضاعة و سائر العرب يحجون البيت و يدينون بالحرمة له. و معنى «الايلاف» أنما هو شىء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من المرابع ، و يحمل لهم متاعاً مع متاعه ، ويسوق إليهم إبلاً مع ابله ليكفيهم مؤنه الاسفار ، و يكفى قريشاً مؤنة الاعداء فكان ذلك صلاحاً للفريقين ، إذا كان المقيم رابحاً و المسافر محفوظا فأخصب قريش ، و أتاها خير الشام و اليمن و الحبشة و حسنت حالها و طاب عيشها (انظر : «ثمار القلوب» للثعالبى ، ص ١١٥ و ما بعدها).

١- أخبار مكة للأزرقى ، ص ١٣١
٢- أسواق العرب لسعيد الأفغانى، ص ٢٩١
٣- آثار البلاد و أخبار العباد للقزوينى ، ص ٨٥
٤- بلوغ الأرب للآلوسى ، ج ١ ، ص ٢٦٧

فى منازلهم بالموسم بمجنة و عكاظ يبلغ رسالات ربه . . .»[٥] وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى حداثة سنه حضر مرة (عكاظ) فرأى الناس قداحتشدوا فى ناحية حول شيخ وقور على وجهه سمات السماحة والحكمة ، و هو على جمله الاورق يخطب ، وقد بقيت هذه الذكرى عالقة بذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم طيلة حياته ، حتى بعد أربعين عاماً «لما قدم وفد (إياد) على النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما فعل قس بن ساعدة؟ قالوا : مات، يا رسول الله! قال: كأنى أنظر إليه بسوق (عكاظ) على جمل أورق ، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ، ما أجدنى أحفظه ، فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا رسول الله. قال كيف سمعته يقول؟ قال : سمعته يقول : . . .» فساق عليه خطبته.[١]

قال الأزهرى : «(عكاظ) : هى اسم سوق من أسواق العرب و موسم من مواسم الجاهلية ، وكانت قبائل العرب تجتمع بها كل سنة ويتفاخرون بها ويحضرها الشعراء فيتنا شدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون»[٢] ويروى لنا الاصفهانى أن (عمرو بن كلثوم) لما قتل (عمرو بن هند) ملك الحيرة ، وقال فى ذلك :

* ألا هبى بصحنك فاصبحينا *

قام بها خطيباً بسوق عكاظ ، «وقام بها فى موسم مكة»[٣] و روى الأصفهانى ايضاً عن الأصمعى : «كان يضرب للنابغة قبة من أدم بسوق (عكاظ) ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها . . .»[٤] و روى عن الأعشى (أبى بصير ميمون بن قيس) أنه «كان يوافى سوق عكاظ فى كل سنة»[٥]

١- انظر هذه الرواية بالتفصيل فى «دلائل النبوة و معرفة أحوال صاحب الشريعة» للبيهقى. باب : ذكر العقبة الثانية : ج ٢ ، ص ٤٤٢ و ما بعد ها.

٢- انظر الأغانى للأصفهانى (إخراج : ابراهيم الأبيارى) ج ١٥ ، ص ٥٥٧١ - ٥٥٧٢. و انظر الخطبة فى «البيان و التبيين» للجاحظ (بتحقيق عبدالسلام محمد هارون) ج ١ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ، ففيه بعض الزيادات ليس فى رواية الأغانى.

٣- لسان العرب (مادة عكظ) ج ٧ ، ص ٤٤٧ (دار صادر - بيروت)

٤- الاغانى (إخراج إبراهيم الأبيارى) ج ١١ ، ص ٣٨٤٠.

٥- المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٣٧٩٢

٦- المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٢٣٣

و إننا نعلم أنه كانت لكل قبيلة لهجة خاصة ، ولكن هذا الاحتكاك و الاتصال فى المواسم و الأسواق مهدا طريقاً إلى إنشاء لغة مشتركة عامة يفهمها النجدى والحجازى ، و المضرى واليمنى ، و التميمى و الهذلى ، و البكرى و التغلبى و يضاف إلى ذلك أن المكانة المرموقة التى كانت تتمتع بها قريش قد لعبت دوراً هاماً فى توحيد هذه اللغة وصقلها. فاتصالهم بالقبائل العربية الأخرى على جانب ، و احتكاكهم بالأمم الأجنبية على جانب آخر ، زوداهم بالثروة اللغوية و صقلا لغتهم. روى لنا أن الشعراء كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، و ما ردوه منها كان مردوداً. فقدم عليهم (علقمة بن عبدة) فأنشدهم قصيدته التى يقول فيها :

* هل ما علمت و ما استودعت مكتوم *[1]

فقالوا : هذه سمط الدهر ، ثم عاد إليهم العام المقبل ، فأنشدهم :

طحابك قلب فى الحسان طروب

بعيد الشباب عصر حان مشيب

فقالوا : هاتان سمطا الدهر.»[2]

فهذه اللغة العامة المشتركة التى اتخذها الشعراء و الخطباء وسيلة التعبير ، هى التى سماها علماؤنا القدامى اللغة الفصحى ، وهى التى اختارها الله سبحانه و تعالى للقرآن الكريم و سماها «اللسان العربى المبين» يقول الله سبحانه و تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين ﴾[3] و إلى هذه يشير قول عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه لزيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه ، حين أراد أن يجمع الناس على قراءة واحدة ، (قال) : و إذا اختلفتم فى شىء فردوه إلى لغة قريش»[4] ولم يكتف القرآن الكريم بلغة قريش و إنما وسع مجاله و ترك أحياناً لغة قريش ليختار لغة قبيلة أخرى ، إذا وجدبها كلمة أحسن رونقاً و روعة. فمثلاً : أن أهل الحجاز يقولون : (أنا منك براء) و لغة تميم : (أنا منك

١- عجزه : * أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم *

٢- الأغانى (إخراج إبراهيم الأبيارى) ج ٢٤ ، ص ٨٤٢٣ و انظر «مواسم الأدب» ج ١ ، ص ٢٠٩

٣- سورة الشعراء : ١٩٣

٤-

برىء)[1] فقد نطق القرآن العظيم بلهجة تميم ثلاث عشرة مرة ، وباللهجة الأخرى مرة واحدة حيث قال : ﴿ و إذ قال إبراهيم لأبيه و قومه إننى براء مما تعملون ﴾[2]

و فى اللسان[3] : (الحوب) بفتح الحاء لأهل الحجاز و (الحوب) بضمها لغة تميم. ولم يستخدم القرآن العظيم فى هذه الكلمة إلا لهجة بنى تميم. قال الله جل شأنه : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حوباً كبيراً ﴾[4] و أمثال ذلك كثيرة ، معروفة منقولة فى كتب اللغة و فقهها ، و إنما اريد أن أبين أن القرآن الكريم قد اختار تلك اللغة المشتركة العامة الشائعة بين أنحاء الجزيرة العربية التى كان الشعراء و الخطباء يستخدمونها، مثلها كمثل اللغة التى تستخدم فى أيامنا للكتابة ، و الأدب ، و فى الجرائد و المجلات. هيأ الله سبحانه و تعالىٰ لها ظروفاً عديدة لتنشأ و تتطور حتى تصلح لتكون لغة كلامه المجيد ، ثم اختارها القرآن الكريم فصقلها و ألبسها جمالاً و روعة مع رونقها و وسعها حتى رفعها إلى تلك الدرجةالرفيعة العالية التى تنقطع دون بلوغها الأعناق ، و تتلاشى دون وصولها الأذهان و تنكسر دون تحققها الهمم.

كانت العرب ، قبل نزول القرآن يستعملون كلمة «الصلواة» للدعا ، أو لحركة الوركين ، فانظروا كيف وسع القرآن الكريم معناها ، فصارت تصور لنا تلك الصورة الرائعة للعبادة الخاصة. وكذالك الصوم ، معناه : الامساك عن الشىء ، و الحج ، معناه : القصد ، و الزكوة ، معناه : التطهر أوالنمو ، ولكن معانيها تغيرت تغيراً واضحاً باستعمال القرآن الكريم لها.

كان العرب ملوك الكلام ، و لما بدأ القرآن ينزل ، و قرعت أياته مسامعهم ، أعجبوابه ، اعجاباً شديداً و وقفوا عند روعته حيارى ، و أخذ جماله بقلوبهم فظلوا

١- المزهر للسيوطى، ج ٢ ، ٢٧٦ - ٢٧٧

٢- سورة الزخرف : ٢٦

٣- لسان العرب (مادة : ح و ب)

٤- سورة النساء : ٢

٥- أخرجه الحاكم (بشئ من الاختصار) فى المستدرک (ج ٢ ، ص ٥٠٦ - ٥٠٧) فى تفسير سورة المدثر وصححه و وافقه على ذلک الذهبى. و البيهقى فى «الدلائل» من طريق عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالىٰ عنهما. وانظر «الميزان فى تفسير القرآن» للسيد محمد حسين الطباطبائى ج ٢ ، ١٧٤ - ١٧٥ ، (ط. المكتبة الاسلامية و مكتبة جعفرى بطهران)

مبهوتين لايستطيعون رده ، و ذهبت معانيه بألبابهم فصاروا متحيرين لايتمكنون على منازعته . رووا[٢] لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقعد فى الحجر ويقرأ القرآن ، فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة . فقالوا : يا أبا عبد شمس! ما هذا الذى يقول محمد؟ أشعر هو أم كهانة أم خطب؟ فقال : دعونى أسمع كلامه ، فدنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد! أنشدنى من شعرك. قال : ما هو شعر ، ولكنه كلام الله الذى ارتضاه لملائكته و أنبيائه و رسله ، فقال : اتل على منه شيئاً. فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حم السجدة. فلما بلغ قوله : ﴿ فان أعرضوا ، فقل أنذرتكم صاعقة ، مثل صاعقة عاد و ثمود ﴾ قال : فاقشعر (الوليد) وقامت كل شعرة فى رأسه و لحيته ، ومر إلى بيته و لم يرجع إلى قريش من ذلك.

فمشوا إلى أبى جهل فقالوا : يا أبا الحكم! إن أبا عبد شمس صبأ إلى دين محمد ، أما تراه لم يرجع إلينا ، فغدا أبوجهل إلى الوليد فقال : يا عم! نكست رؤسنا و فضحتنا و أشمت بنا عدونا و صبوت إلى دين محمد. فقال : ما صبوت إلى دينه ولكنى سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود ، فقال له أبوجهل : أخطب هو؟ قال : لا! إن الخطب كلام متصل ، و هذا كلام منثور ، ولا يشبه بعضه بعضاً ، قال : أشعر هو؟ قال : لا! أما إنى لقد سمعت أشعار العرب بسيطها و مديدها ، ورملها و رجزها ، و ما هو بشعر. قال : دعنى أفكر فيه.

فلما كان من الغد ، قالوا له : يا أبا عبد شمس ، ما تقول فيما قلناه؟ قال : قولوا : «هو سحر فانه آخذ بقلوب الناس» هكذا كان القرآن الكريم ، و مازال يتحداهم قرع مسامعهم ، ولو استطاعوا لافتدوا بكل ما كان فى وسعهم ليردوا عليه فكفاهم و ما أنقوا أنفسهم فى كير الحروب ، وكانت قريش أهل تجارة ، فكانوا أحذر الناس من الحروب ، ولكنهم لم يجدوا منفذاً ولا مفراً ، و ما استطاعوا أن يعارضوا القرآن العظيم ، فما زال هو يفعل فعله ، يدخل فى أعماق نفوسهم و يستقر فى قرارة قلوبهم ، فأحيا القلوب الميتة ، و أخصب الصدور الجدبة فأقبلوا إليه يجلونه ، يستخرجون لآليه الثمينه ، ويقتبسون من أنواره الجليلة. هذا لبيد ، كان شاعراً فحلاً ، فلما أسلم ترك قول الشعر. و لما أمر عمر بن الخطاب ، أبا موسى الاشعرى ، أمير الكوفة أن يأمر من قبله أن يكتب له ماكان قاله من شعر جديد ، كتب لبيد سورة البقرة ، وقال : أبدلنى الله هذا بذاك.

هكذا شغل القرآن الكريم بالهم ، فاهتموابه اهتماماً شديداً و عنوابه عناية بالغة و قدعرفوا أن القرآن و السنة . المصدرين الأساسيين الأصيلين للشريعة الاسلامية كانا بلسان عربى مبين ، وتلقتهما هذه الأمة بكل محبة و إجلال و بلغت فى خدمتهما

ما لم تبلغ أية أمة فى العالم لحفظ مصادر شريعتهم فتفرعت لخدمتهما علوم كثيرة كما حاولوا محاولات جليلة وسعوا مساعى جميلة لحفظ هذه اللغة الكريمة و تدوينها و تسجيلها.

وكانت من أهم تلك العلوم التى أنشئت لخدمة القرآن العظيم و سنة صاحب القرآن ، صلى الله عليه وسلم ـ التفسير و أصول التفسير ، و علوم القرآن ، و علم القراءة ، و علم أسباب النزول ، و الناسخ و المنسوخ ، و غريب القرآن ، و فى الحديث علوم الحديث و أصوله ، و علم أسماء الرجال ، و أسباب ورود الحديث ، و غريب الحديث ، ثم علم الفقه و أصوله ، و علوم اللغة و فقهها ، كما أنشأت حركة تدوين المعاجم فقيدت الثروة اللغوية و دونت حيث لاتباهيها أية لغة عالمية أخرى من هذه الناحية. و لما كانت حدود المملكة الاسلامية طفقت تتوسع و تمتد إلى أقاصى أنحاء العالم ، وكثر اختلاط العرب بالعجم ، و نتيجة لذلك ، تسرب إلى لغتهم اللحن و بدأ يكثر حتى خيف على ذهابها ، أسست عندئذ علوم العربية من النحو و الصرف و العروض و فقه اللغة وغيرها لصيانة هذه اللغة ـ لغة القرآن و الحديث ـ شوائب اللحن و التغيير. وكان مرد هذه العلوم ـ حتى العلوم الدينية فى كثير من الأحيان ـ و أساسها الشعر العربى القديم ولذلك نجد فى كتب التفسير و غريب القرآن و الحديث و النحو و الصرف وغيرها كثرة الاستشهاد به. وهذا أمر طبعى ، لان الامة العربية فى عصرها ما قبل الإسلام لم تكن لديها وسائل متوافرة لتسجيل وقائعها و أيامها ، و حفظ تاريخها ـ من الكتابة و ما إلى ذلك ـ فكانت ، بما أودع الله تعالى فيها من الحس المرهف و الوجدان الشعرى مع قوة الحفظ وحدة الذهن و براعته البالغة ، اتخذت الشعر مستودعاً لوقائعها و أيامها و تاريخها و أخبارها ، وكأنه سجل تاريخهم و ماضيهم و ديوان علمهم ، و إلى هذا يشير قولهم : إن الشعر كان فى الجاهلية عند العرب ديوان علمهم و منتهى حكمهم به يأخذون و إليه يصيرون.»[1] ولذلك لاحظ الخليفة الثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، مكانة الشعر العربى القديم و اعتبره علماً ، و اعترف بأنه لم يكن للعرب علم أصح من الشعر ، فقال : «الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه.»[2] وقال عبدالكريم النهشلى القيروانى : لما رأت العرب المنثور يند عليهم وينفلت من أيدهم ، ولم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم ، تدبروا الأوزان و الأعاريض ، فأخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الغناء فجاء هم مستوياً ، ورأوه باقياً على مر الأيام ،

١ـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام (بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر) ج ١ ، ص ٤ ٢

٢ـ المصدر السابق نفسه

فالفوا ذلک و سموه شعراً.»[١]

و روى الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ عن جابر بن عبدالله رضى الله تعالىٰ عنهما ، قال : كنا نجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يتناشدون الأشعار ، يتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية و رسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت، فربما تبسم.»[٢] إن تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمز إلى رضاه ، وكيف لا يرضى وهو أعلم الناس بأن أية أمة انقطعت عن ماضيها لا تستطيع أن تعيش طويلاً فيذوب كيانها و تتلاشى شخصيتها. وكان يعلم ايضاً أن الشعر يمثل تلک اللغة الكريمة التى اختارها الله سبحانه و تعالىٰ لكتابه العزيز ، و لذلک كان يشجع أصحابه على إنشاد الشعر. و يروى لنا الامام مسلم بن الحجاج رحمه الله تعالىٰ عن عمرو بن الشريد عن أبيه ، قال : «ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فقال : هل معک من شعر أميه بن أبى الصلت شيئاً؟ قلت : نعم ، قال : هيه! فأنشدته بيتاً ، فقال : هيه ثم أنشدته بيتاً ، فقال : هيه ، حتى أنشدته مائة بيت.»[٣] فكان الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين قدعرفوا قدره فجعلوه فى حسابهم و عنوابه عناية خاصة ، ذكر ابن رشيق أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالىٰ عنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالىٰ عنه : «مر من قبلک بتعلم الشعر ، فانه يدل على معالى الأخلاق ، و صواب الرأى ، و معرفة الأنساب[٤] وقال معاوية رضى الله تعالىٰ عنه : «يجب على الرجل تأديب ولده ، و الشعر أعلى مراتب الأدب.»[٥] و هذا عبدالله بن عباس رضى الله تعالىٰ عنه ، كان يجلس بفناء الكعبة يفسر للناس القرآن ، و إذا هو كذلک جالس قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، جاءه نافع بن الأزرق و سأله عن معانى لأكثر من مائة كلمة من مفردات القرآن فبين له معانيها ، واستشهد لكل كلمة ببيت من الشعر الجاهلى[٦].

هكذا كان القرآن الكريم المحور الذى نشأت حوله المعارف الاسلامية وقامت لخدمته الدراسات العربيه التى جدت فى حياة العرب بعد الاسلام ، و تطورت ثقافتهم

١- الممتع فى صنعة الشعر ، ص ١٨

٢- المسند ، ج ٥ ، ص ١٠٥ (دار صادر بيروت).

٣- الجامع الصحيح للامام مسلم ، كتاب الشعر حديث رقم (١) (ج ٤ ، ص ١٧٦٧ بتحقيق عبدالفؤاد باقى)

٤- العمدة ، ج ١ ، ص ٢٨

٥- المصدر السابق نفسه

٦- انظر : «الاتقاق فى علوم القرآن» السيوطى ، ج ١ ، ص ١٥٨ - ١٧٥

فأصحب ثقافة غنية واسعة فاتسعت لها لغة العرب بعد نزول القرآن. يقول الشيخ محمد الخضر حسين : «فضل الاسلام على اللغة العربية يظهر فى غزارة مادتها و براعة أساليبها ، و اتساع مذاهب بيانها ، و كثرة الأغراض التى يتسابق إليها فرسان الخطابة و الكتابة.»[١]

إن دعوة القرآن الحكيم وجهت إلى البشرية جمعاء ، قال الله سبحانه و تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾[٢] وقال عز من قائل : ﴿ و ما ارسلناك إلا كافة للناس بشيراً و نذيرا ﴾ فانتشرت هذه الدعوة بين مشارق الأرض و مغاربها وكانت كل أمة إذا اعتنقت الاسلام ، اهتمت بكتاب الله عزوجل اهتماماً كبيراً ، و تعلمت العربية يقول الدكتور طه حسين : ما كاد العرب بعد الفتوح يدخلون فى بلاد فارس و يستقرون فيها حتى تعلم الفرس هذه اللغة الجديدة ، و غلبت على ألسنة كثير منهم و أقلامهم. و ما أكثر الفرس الذين استأثروا ببعض هذه العلوم حتى أصبحوا كأنهم أصحابها ، وكلنا يعلم مكان كتاب سيبويه بين كتب النحو ، وكلنا يعلم ايضاً استئثار الفرس بتدوين علوم البلاغة العربية.»

و يقول الدكتور طه حسين ايضاً : و مع أن الفرس قد أحبوا لغتهم الفارسية و نظموا فيها الشعر منذ أواسط القرن الرابع للهجرة فقد ظلت اللغة العربية ، لغة العلم و الفلسفة عندهم إلى أواخر القرون الوسطى. وانظر إلى كتب ابن سينا و التفتازانى و السيد الجرجانى و الطوسى وغيرهم. وكل هذا بفضل القرآن الكريم ، فبفضله انتشر الاسلام.»[٣]

و يقول الدكتور عدنان زر زور : أما دور القوة الواقية ، أو دور حفظ اللغة العربية الذى تم بفضل وجود القرآن الكريم فهو أخطر دور يمكن أن يؤديه كتاب للغة من اللغات ، هذا إن كان قد وجد كتاب آخر أدى قريباً من مثل هذا الدور أو عشره فى لغة من لغات الأرض ... فوصول القرآن العربى إلى جميع الناس فى عصر واحد لايقل أهمية عن وصوله إليهم فى جميع العصور. و من هنا جل هذا الكتاب الكريم عن التحريف و التبديل مصداقاً و تفسيراً شاهداً نقرؤه فى كل جيل لقول الله تعالى : ﴿ إنانحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون. ﴾»[٤]

١-

٢-

٣- نقلاً عن «دراسات قرآنية» ص ١٢ - ١٣

٤- دراسات قرآنة ، ص ١٥

و يقول : «لقد وقف القرآن ، و خصوصاً فى الزمن الذى انقسمت فيه الدولة العربية الاسلامية إلى مدن و دويلات ، حائلاً و سداً دون سريان اللهجات المحلية و انتشارها ولولا هذا الكتاب القرآن الكريم لماكان نصيب اللغة العربية من التجزؤ والانقسام بأقل منه فى اللغة اللاتينية و ما إليه اليوم ... و بفضل هذا الكتاب الخالد بقيت الوحدة اللسانية و الفكرية قائمة بين شعوب الأقطار العربية ، و بفضله كذلك نقرأ اليوم أدب العربية من عصر الجاهلية إلى العصر الحديث.» [١]

إن الحقيقة التاريخية قد أكدت فضل القرآن الكريم على اللغة العربية ، و بفضله توسعت و تطورت فأصبحت أغنى اللغات العالمية ثروة لغوية ، و أوسعها ، و قامت ضد تحديات مهلكة ، صامدة و لجت و تخلصت من تلك المعارك التى وجهت إليها من الخارج لاستئصالها ، و كسرت تلك المعاول التى كانت تستخدم من الداخل - من أبنائها - لهدم قواعدها ، قال الدكتور رمضان عبدالتواب : «لولا القرآن الكريم لاندثرت العربية الفصحى ، و أصبحت لغة أثرية ، تشبه اللاتينية أو السنسكريتية.» [٢]

و قد صدق العلامة ابن خلدون حين قال : تختلف لغة العرب لعهدنا ، مع لغة مضر إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة ... حمل على ذلك الاستنباط و الاستقراء ، وليس عندنا لهذا العهد ، مايحملنا على مثل ذلك ، ويدعونا إليه.»

فسبحان الله العلى العظيم والصلاة والسلام على رسوله النبى الكريم.

١- المصدر السابق ، ص ١٥ - ١٦

٢- «فصول فى فقه العربية» للدكتور رمضان عبدالتواب ، ص ١١٥ (ط. مكتبة الخانجى بمصر)